

معرفتي بالمهندس

أحمد وصفي زكريا

كان المهندس الزراعي أحمد وصفي زكريا في الثلاثينات معروفاً من قبل المتعلمين والمتقنين السوريين وغيرهم، فقد تخرج عليه في مدرسة سلمية الزراعية تلامذة كثيرون من مختلف أنحاء سورية. وتقلب في عدة وظائف حكومية، كانت تقتضيه التنقل والتجوال في جهات البلاد السورية وغيرها والتعرف على السكان والاختلاط بكل الطبقات، وهو بطبعه، يحب تقصي المعلومات عن الأماكن التي يزورها من شتى المصادر بما فيها المشافهة وتقبيد ما يتحصل له، مما يسر له فيما بعد وضع كتبه التي اعتمدت على المشاهدة والمشافهة قبل غيرها من المصادر.

وكان عقب عودته من اليمن سنة 1936، قد نشر سلسلة مقالات عن جغرافية اليمن وأحواله الزراعية والاجتماعية في مجلة المقتطف المصرية، التي كانت منتشرة بين الأوساط العلمية والأدبية في البلاد العربية. وقد كنت أتابع قراءة هذه المقالات بشغف زائد، كانت تطلعني على جوانب من أحوال اليمن لم تكن الصحافة العربية تكتب فيها، بل لم تكن الصحافة والمنشورات العربية تنشر شيئاً ذا بال عن اليمن، باستثناء ما كتبه الرحالة العربي أمين الريحاني في كتابه (ملوك العرب) بجزئيه المطبوعين في بيروت.

وفي الثلاثينات كنت ذات يوم أقف أمام واجهة إحدى المكتبات في دمشق فلفت نظري كتاب "جولة أثرية في بعض البلاد الشامية" بقلم المهندس الزراعي أحمد وصفي زكريا. وقد شاقني موضوع الكتاب، وأنا مولع بقراءة كتب الرحلات والكتب الأثرية وخاصة ما يكتب عن وطني سورية. ففرحت بوجود الكتاب،

واستيرته من ساعتى. وكاننى حصلت على غنم غير قليل. وقرأته بشغف. وكان
بتعة عقلية لى. وشافنى أسلوبه وأفادتنى معلوماته. ومازلت حفيأ به. وهو (وصف
الجغرافى تاريخى أثري عمرانى للبقاع والبلدان الممتدة من شمال الاسكندرونه إلى
أبواب دمشق) طبع فى المطبعة الحديثة بدمشق سنة 1353 للهجرة الموافقة سنة
1934. ويقع فى 410 صفحات مزود بخمس وعشرين صورة شمسية وحجمه
متوسط. مجلد كعبه قماش.

وأحببت التعرف على المؤلف، وكان يقيم فى دمشق. وفى سنة 1943،
كنت فى دمشق وزرت السيد زكريا فى مكتبه بوزارة الزراعة، وكان يشغل وظيفة
مفتش عام فيها، ورحب بى كثيراً وسره التعرف على، وكنت نشرت بضع مقالات
فى المجالات السورية واللبنانية وسررت بمعرفته. وأبتهج بالتعرف على شخص من
أبناء وادي الفرات يهتم بالأدب والفكر. وذكره ذلك برحلته إلى وادي الفرات عام
1916. فاستعرض خطوطاً قليلة منها. وكان وقت زرتة يعمل فى إعداد كتابه
عشائر الشام، ويتحرى المصادر العربية والأجنبية. وأطلعنى على نسخة من كتاب
عشائر شمر فى جزئين باللغة الألمانية تأليف المنقب الأثارى الألمانى البارون
(فون أوبنهايم) الذى نقب فى تل حلف. إحدى مراكز الحضارة الميتانية فى أعالي
الخابور فى الجزيرة الفراتية.

وزرت السيد زكريا فى بيته فى المزرعة بدمشق، ودعانى إلى مائدته.
فكان بيننا ملح وخبز. وجاء إلى دير الزور سنة 1948 وزارنى فى بيتى، وفى
اليوم التالى طلب منى أن أرافقه إلى رحلة إلى نهر دورين. ترعة من الخابور. فقد
كلفه رئيس الجمهورية حسنى الزعيم بتقديم تقرير عنها. وذهبنا إلى البصيرة عند
مصب نهر الخابور فى الفرات، تبعد 42 كيلو متراً إلى الجنوب الشرقى من دير
الزور، واصطحبنا معنا مدير الناحية، وجئنا إلى مأخذ الترعة وتتبعنا أثرها القديم،
ومررنا بأراضٍ خصبة هى مراع لعشيرة العقيدات من عشائر دير الزور. وكان

المهندس بين مسافة وأخرى ينزل من السيارة ويفحص التربة ويأخذ عينه من التراب لتحليلها في دمشق. وفي البصيرة كتب تقريراً أولياً عن رحلته وقعته أنا ومدير الناحية معه.

وعندما صدر الجزء الأول من كتاب عشائر الشام ابتهجت بصدوره لطرافة موضوعه، وقراءته بشغف كبير، وأكبرت مجهود مؤلفه. ولم يكتب أحد من السوريين في موضوعه. وكتبت مقالاً أثبت فيه على الكتاب وعلى المؤلف، نشرته في مجلتي صوت الفرات بتاريخ 25 نيسان 1947 العدد 54.

ولقد تبادلنا الرسائل، وكنت أهدي إليه أعداد مجلتي. وكان معجباً بالمقالات التي أكتبها فيها، وكان يثني عليها كثيراً. وقد جعل مجلة صوت الفرات ضمن مصادر كتابه (عشائر الشام). وكان يعتزم إخراج كتابه (الريف السوري) في عدة أجزاء بحيث تشمل جميع المحافظات السورية. وقد جعل مجلة صوت الفرات مرجعه الأول فيما يتعلق بمحافظة دير الزور. ولكن المؤلف قصر كتابه على محافظة دمشق، لأنه لم يلق التشجيع والمؤازرة لا من الحكومة والدوائر ولا من الشعب. مع ما لموضوع كتابه من أهمية. ومع جدارة المؤلف بالتشجيع.

وكنت قد نشرت ترجمة موجزة للمهندس زكريا بعنوان (أحمد وصفي زكريا) في العدد 116 من مجلتي صوت الفرات تاريخ تموز 1961 في سلسلة مقالات كتبتها بعنوان (علماء زاروا وادي الفرات وكتبوا عنه).

ولما كان المهندس زكريا قد زار وادي الفرات عام 1916، فقد رجوته أن يتكرم بكتابة وصف لرحلته تلك لمجلة صوت الفرات. وقد رجوت أن تكون المقالة وثيقة تاريخية ومصدراً هاماً من مصادر تاريخ وادي الفرات، وتاريخ حاضرتة دير الزور. وتاريخهما يفتقر أشد الافتقار إلى المصادر. وكنت أقدر صعوبة كتابة مثل هذا المقال على المهندس زكريا بسبب بلوغه العقد السابع من العمر وتباعد الزمن. فتفضل ووعدني بأن يكتب وصف تلك الرحلة على ما في تذكرها من صعوبة.

ولقد أراد إكرامي بهذه التلبية. وليس من ريب أن الكتابة في مثل هذا الموضوع مرهقة لمن هو في سنه. ولكنه كان يبدو لي في شباب الفكر وقمة النشاط الأدبي، مما يشفع لي في طلبتي من السيد زكريا كتابة مذكراته عن رحلته تلك. ولقد شكرت له وعده واعتبرته أريحية منه وتكريماً لي أقدره حق قدره وما نسيته.

ولقد بر بوعده وأرسل إليّ مقالة في عشر صفحات في شهر أيار 1961 مضروبة على الآلة الكاتبة من قبل ضارب غير ماهر، وقع في أخطاء كثيرة وتخطى عبارات وكلمات وأسطراً مما جعل الأستاذ زكريا يصحح ويحشي إضافات بين الأسطر، ويلصق جزازات. ومهما يكن من أمر كتابة هذه المقالة فقد فرحت كثيراً بوصولها. وظننتها قد احتوت وصف كل معالم الطريق بين حلب دير الزور في ذلك الوقت، وقررت نشرها في مجلة صوت الفرات. وكأنها سبق صحفي أدبي. وقرأت المقالة بشغف على طولها. ووجدت الكاتب قد وقف بها عند قرية مسكنه (بالس) من الطريق وبينها وبين حلب 88 كيلو متراً من أصل 317 كيلو متراً هي طول الطريق بين حلب دير الزور. فأرجأت نشر المقالة إلى أن يتم وصف الطريق أو تتم الرحلة فأنشرها في عدد خاص من مجلة صوت الفرات. ولم أر نشرها أجزاء.

وكتبت إلى الصديق زكريا أعرب له عن شكري الجزيل على فضله بكتابة المقالة وتكرمه بإرسالها، واستحسناني أسلوبه واستطراداته. وبينت له رغبتني بأن تظهر الرحلة تامة واستعدادي لنشرها في عدد واحد من مجلة صوت الفرات، وكان هو يرغب بنشرها أقساماً حتى تتاح له فرصة كتابة القسم الذي يلي. وحسب أنني استطولت القسم الأول المكتوب على الآلة الكاتبة، فكتب خلاصة له بخط يده في سبع صفحات وأرسلها إليّ لنشرها على أن يرسل بقية الرحلة، وكتبت إليه أحثه على كتابة تنمة الرحلة وإرسالها، فلبى رغبتني متفضلاً مشكوراً، وأرسل إليّ 18 صفحة بخط يده ولكي لا تقع أخطاء مثل التي وقعت في القسم الأول المكتوب

على الآلة، ولكي يتفادى التصحيحات والتحشيات. وكان تاريخ المقالة الثانية في تموز 1961.

وبرغم طول القسم الأول من الرحلة وهو المضروب على الآلة وكثرة الأخطاء فيه فقد فضلتَه على القسم الأول المكتوب بخط الصديق زكريا، لما تضمنه من الاستطرادات اللطيفة.

ابتهجت كثيراً بوصول القسم الثاني من وصف الرحلة. وقد عنونه الكاتب بالعنوان التالي: (ذكرياتي عن وادي الفرات قبل خمسة وأربعين سنة) وقرأته بشغف زائد وتمعن وحرص حتى لا يفوتني منه حرف. وازداد سروري باجتماع شمل هذه الذكريات، وهي عندي وثيقة هامة عن تاريخ وادي الفرات، الذي أسعى بكل طاقتي لجمع أشتات عن تاريخه الضائع والذي مازال مجهولاً مما أتألم له أشد الألم.

واستبشرت بأن تكون هذه الوثيقة الحلقة الأولى في سلسلة وثائق عن تاريخ وادي الفرات أنشرها في مجلتي، وفي رسائل مستقلة. وكنت حصلت على وثائق قليلة هي بعض المصادر عن الفرات سأنشرها في هذه السلسلة.

كنت راعباً في نشر رحلة زكريا إلى وادي الفرات في عدد خاص من مجلة صوت الفرات، إلا أن ظروفأ قد حالت دون نشرها. وقد لازمتني رغبتني بنشرها لأفي بوعدني لصديقي بنشر مذكراته عن وادي الفرات التي كتبها في شيخوخته تلبية لطلبي وخصيصاً لمجلتي.

وكان المهندس زكريا قد جاء إلى دير الزور في سنة 1950 وزارني في بيتي وسعدت بلقائه وزيارته، وجلسنا معاً في (الجرداق) على النهر وكان يرتاح إلى الجلوس فيه، منتشياً بنسمات الفرات في الصيف ويسر بظل الأشجار الوارفة ينعم بالهدوء والبساطة.

وقد رجوت منه بأن يحدث الشباب الديريين عن مشاهداته في اليمن في نادي الأخوة الصيفي، فقبل مسروراً. وطبعنا بطاقات ووزعها النادي في البلد. وجاء

جمهور كبير في المساء لاستماع حديث السيد زكريا عن اليمن. وتحدث من
الذاكرة عن اليمن مقدار ساعة، وسر الجمهور، الذي كان يستمع إلى معلومات
جديدة عليه عن قطر كانت تقع له معلومات قليلة عنه.

توطدت بيننا صداقة أعتر بها ولا أنساها. كنت أزوره في بيته كلما ذهبت
إلى دمشق، وكان يرحب بي أجمل الترحيب وكنا نتراسل. وما أن أكون عنده في
داره حتى تتوالى أسئلته عن الصحة وعن أحوال دير الزور والفرات وأهله وما
استجد من شؤونه. ويجري معي تحقيقاً عن نشاطي الأدبي وما أعددت من
دراسات وتحقيقات، وعما لدي من مصادر عن الفرات وعما أقرأ من الكتب
والمجلات، وما هي مشاريعي الأدبية التالية. تشوقه معرفة كل ذلك باعتباره باحثاً
ولأنه في حد ذاته شعلة نشاط نهم إلى المعرفة وإلى الجديد.

ويكون عنده ضيوف وزوار فيقدمني إليهم مطناً بالثناء حتى يخلني.

وكان قد أودع نسخاً من كتابه عشائر الشام الجزء الأول عند موظف في
دير الزور ليصرفها له. ومضى عليها عنده عدة سنوات. دون أن يرسل ثمنها إلى
المؤلف إذا كان قد باعها، ولا أعاد النسخ إن لم يكن قد صرفها، وقد كتب المؤلف
إلى الموظف مراراً بشأن النسخ، وكانت نسخ الكتاب قد نفذت من المكتبات. ولما
ظهر الجزء الثاني من عشائر الشام ولقي إقبالا، اشتد طلب الجزء الأول وتضاعف
سعره. وكتب المؤلف إليّ بأن أراجع الموظف، وراجعته بلا فائدة في البدء. وقد
أرسل إليّ المؤلف وكالة، ورفعت دعوى على الموظف لدى المحكمة بطلب نسخ
الكتاب أو ثمنها. ولما تبلى مذكرة الدعوى جاء إليّ وصالحني على مبلغ أرسلته
حوالة بريدية إلى المؤلف. وقد سره أن استعاد حقه ولو منقوصاً وبعد حين، وكان
يرغب بنسخ الكتاب لو وجدت. وكتب إليّ يعرب عن امتنانه وشكره. وسرني أن
استطعت أن أقوم بخدمة صغيرة لأديب وصديق.

وكان في أحد الأيام من فصل الربيع في دمشق قد اصطحبني وزرنا

صديقه المؤرخ والعالم الفلسطيني محمد عزة دروزة في بيته بشارع الروضة، فرحب بنا وكان منهماكاً بوضع كتاب في تفسير القرآن، وقعدنا نتحدث. وجاء رجل من معارف دروزة وزكريا للزيارة. ولم يمكث غير وقت قصير وقام ليذهب وقال مازحاً: الله يساعدك بين أطرشين. وكان في سمع كل من زكريا ودروزة ثقل غير قليل، يضطر معه المتحدث إليهما أن يرفع صوته أكثر من المعتاد.

وعندما أكون في دمشق نذهب أحياناً إلى المكتبة الظاهرية . دار الكتب الوطنية . لمراجعة بعض المصادر التركية. وكان الأستاذ زكريا يترجم لي منها ما يهمنا. وكنا نتذاكر المصادر التي تهمة في بحوثه وتهمني في تحقيقاتي. (والمرء كثير بإخوانه).

لقد فقدت بموت الأستاذ زكريا صديقاً لطيفاً كريماً عالماً عاملاً وأديباً فاضلاً ومؤلفاً محققاً كبيراً مخلصاً للعلم، على أنه حي في كتبه ومؤلفاته العديدة النافعة.

إن ذكره حبيبة إليّ دوماً. وها أنا أجسدها بنشر ذكرياته عن وادي الفرات التي كتبها خصيصاً لمجلتي التي كان يخصصها بحبه وتقديره الزائدين.

وإني أحيي ذكره بنشر ترجمة موجزة له، وبتعريف بكتبه. وبكتابة وصف لطريق حلب دير الزور أمهد به لمذكراته التي وصف بها هذه الطريق، وليكون وصفي لهذه الطريق اليوم متمماً لوصف المهندس زكريا للطريق المذكورة.

لاشك أن الأستاذ زكريا كان يفرحه نشر مذكراته عن وادي الفرات في مجلة صوت الفرات وفي رسالة خاصة في حياته، وكان ذلك يفرحني كذلك.

أما وقد مرت خمسة أعوام على وفاة العالم الأديب الأستاذ زكريا بدون أن تقام له في دمشق تابين أو تكريم. ودون أن يكتب عنه كاتب سوري ولو مقالة، أحسب أن روحه تسر بنشر مذكراته عن وادي الفرات مع تمهيد وترجمة لحياته وتعريف بكتبه أضعاف ما كان يسر لو أنها نشرت في حياته. وإن سروري اليوم

بنشر هذه المذكرات هو أضعاف سروري لو أنها نشرت في حياة المؤلف. وأنا أنشرها على نفقتي.

لتكن هذه الرسالة تحية صادقة من بعيد لأديب عالم أجله وأوده.

ليس الأديب أحمد وصفي زكريا أول عالم يتناساه بلده ويغبط فضله وتتجاهل خدماته الكبيرة لوطنه.

ستعرف الأجيال العربية الآتية فضل أحمد زكريا، وتذكره بما يليق به حين تخلص تلك الأجيال للعلم والبحث وتجد في التعرف على تاريخها والتحرري عن مصادره وكتابته كتابة علمية.

سيترجم المؤرخون الذين يؤرخون للحركة العلمية والحركة الأدبية في سورية في القرن العشرين لأحمد وصفي زكريا. وسيكتب الكتاب العرب سيرة حياته وأعماله. إنها سيرة تشرف الكتاب السوريين والعرب.